استطلاع ثقافي

العنوان والمُساءلة النقدية

بغداد مُشتركاً في نمط العَنوَنة الروائية

علي كاظم داود

يتخذ العنوان موقعاً محورياً في العمل الأدبي، لا يصدر عن فعل اعتباطي أو بمحض المصادفة؛ ووصفه بـ "ثريا النص" يمنحه أهمية كبيرة في الرؤية النقدية؛ فهو الضوء الكاشف منذ لحظة التعرف الأولى على فكرة النص أو الكتاب.

من اجل ذلك شاع في الدراسات النقدية الاهتمام بما يصطلح عليه بـ "العَنْوَنَة" والذي يعالج العنوان، دلالاته وشعريته وارتباطاته بالنص ومدى نجاحه في تمثيل ثيمته. ومن بين النقاشات التي دارت حول هذا المصطلح، ما طرحه الدكتور "لؤي حمزة عباس" في صفحة "أنفي يطلق الروايات" على الفيس بوك وتلته آراء متعددة أغنت الموضوع ومنحته وجهة نقديّة أكدت دور الصفحات المتخصصة في الارتقاء بموضوعاتها عبر حوارات تتطوّر من خلالها الفكرة وتعدد سبل النظر إليها.

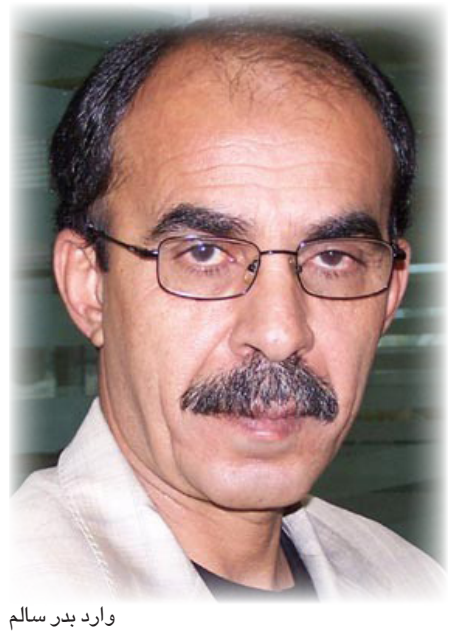
وارد بدر سالم

لؤي حمزة

احمد السعداوي

كتب د. لؤي حمزة: "أصبحت الإجابة على سؤال العَنوَنة في العمل الأدبي من بديهيات الدرس النقدي الذي منح العنوان ما يستحق من التأمل والمراجعة بوصفه عتبة مؤثرة من عتبات النص، لحظة أولى للتواصل والاشتباك، تدعونا للتفكير بما تخبئ النصوص من بواطن وما تؤجل من أسرار. طيّب، وماذا بشأن تداخل النمط في أكثر من عنوان روائي.. هل يقود نمط العَنوَنة في زمان ومكان معينين للتفكير بطبيعة الكتابة الروائية، والنظر إلى أهدافها، وما يشدّها من جواذب ومؤثرات؟ ذلك ما يدور في ذهني في اللحظة التي أتأمل فيها توجهاً شكّلت فيه (بغداد) مركزاً لإنتاج العنوان في أكثر من رواية عراقية راهنة: عجائب بغداد، أموات بغداد، مشرحة بغداد، فرانكشتاين في بغداد. (للأعزاء: وارد بدر السالم، وجمال حسين علي، وبرهان شاوي، وعمل أخير أطلق عنوانه ولم ينشر بعد للصديق أحمد سعداوي)".

هو تأشير، إذن، لظاهرة اتسعت في الإصدارات الروائية، متخذة من الرمز المشترك، الذي اختار له د. لؤي حمزة "بغداد" مثالاً شهدت الرواية العراقية استثماره على نحو واسع. الروائي "أحمد سعداوي" أضاف عناوين اخرى استخدمت الرمز نفس بقوله: "ليس هذا فقط وانما (جريمة في بغداد) . حسب بعض الترجمات . لاجاثا كريستي، و(الجريمة، الفن، وقاموس بغداد) لعلي بدر، و(بريد بغداد) لخوسيه ميجيل باراس. شخصياً، مفردة بغداد في روايتي غير المنشورة بعد، مفردة محورية واساسية، ولا اخفي اني فكرت . بعد تدافع البغدادات هذه السنة . بتغيير العنوان حين ادفع الرواية للنشر، ولكن المشكلة ان عنوان (فرانكشتاين في بغداد) صار مشهوراً، وهناك فصول مترجمة من الرواية الى الانكليزية، ويتم التعامل معها على انها عمل محسوم".

إن مشاركة أحمد السعداوي تحيل الحوار إلى المشغل الشخصي للكاتب، وتقف عند واحدة من تجاربه في مساءلة عنوان عمله الروائي. عاد د. لؤي للتأكيد على فاعلية المُوجهات في إنتاج العَنوَنة، بقوله: " أفكّر في زمنية الانتاج ومكانيته، داخل لغة واحدة، بما يمكن أن تشكلا من جاذب صياغي، أو موجّه من ضمن موجّهات لإنتاج النمط. وأفكّر أيضاً: أن العنوان هو مناورة النص، لغزه، واحتياله، وأن تشكّل كلمةٌ ما نمطاً مركزياً للعنونة يعني أن نخفف من طبيعة المناورة النصيّة، ونقلل من شحنة الاحتيال، وهو ما يُدخل كثيرا من النصوص في دائرة لغز واحد، يقترحه الواقع بمؤثراته الفادحة".

الروائي ميثم سلمان رأى أن: "المسألة لها علاقة باللحظة التاريخية التي تمر بها بغداد. لحظة تغري الكاتب بتناولها، وتغري القارئ بمعرفة خفاياها. نحتاج لتأمل الروايات التي تحمل عناوينها مفردة بعينها ونرى إن كانت النصوص داخلة (في لغز واحد). هناك الكثير من العناوين احتوت على مفردة الحب مثلا، فهل تخضع نصوص هذه الروايات لمحددات هذه الفكرة؟".

عاود احمد سعداوي المشاركة في الحوار ليضيء فكرة أخرى بإضافته: "لا اعرف ان كنت توصلت الى نتيجة محددة. ولكن تبقى مفردة (بغداد) فاعلة ضمن بنية العنوان نفسه، كما ان العنوان بمجمله لا يحمل قيمة بذاته خارج اطلالته على النص وترابطه الدلالي معه. واذا تتبعنا تكرار مفردات محددة في عناوين الروايات سنجد الكثير. أتذكر هنا (القارئ البغدادي) للكاتب جبار ياسين ونزول طبعتها الايطالية الى الاسواق عشية غزو العراق في ٢٠٠٣، وكيف انها نفدت من الاسواق سريعاً واعيد طبعها لمرات بسبب ارتباط العنوان او مفردة منه (بغداد) بحدث اعلامي كبير. ومتابعة لهذا النقاش . والكلام لسعداوي . أقول: ربما تكون المفردة في العنوان ومن خلفها النص نفسه يستجلبان الإثارة القادمة من الميديا التي تعطي تفسيرها وقراءتها للواقع، كبديل عن التفسير الروائي والإثارة الجمالية والمعرفية الخاصة بفن الرواية".

عاد بعدها د. لؤي ليؤكد: "بأن نمط العنونة المشترك لروايات عدة يُدخلها ضمن أفق انتظار مشترك.. الروايات التي يدخل الحب ضمن عنواناتها تعمل على تهيئتنا لموضوع بعينه.. ترى هل تعمل روايات (بغداد) على الفرضية نفسها؟".

وعن هذا السؤال الأخير كتب ميثم سليمان: "كجواب سريع أقول نعم ستدخلنا الى افق بعينه، لكن مهمة الراوي هي بتناوله المختلف للموضوع، ورسمه خريطة بناء الهيكل العام لتقديم الموضوع، ومعالجته المميزة وفق رؤيته الخاصة إلخ... هذه الأمور هي ما يميز رواية عن أخرى وليس فقط جوهر الموضوع".

الروائي وارد بدر السالم شارك في اغناء الحوار، كاشفاً وجهاً من وجوه قلق الكاتب ازاء العنوان وهو (يسترخي في تاريخيته النصيّة) حسب تعبيره: " تغير عنوان روايتي أكثر من مرّة، فمن " القرية البوذية" إلى " صياد الهويات" إلى "بوذا بغداد" حتى استقر (عجائب بغداد) في اللحظة الأخيرة والحاسمة بطريقة مفاجئة بالنسبة لي".

وقد أوضح أن " العنوان يُحيل الى عتبة مكان وتاريخ ضمنياً، لكنه يسترخي تماماً في تاريخيته النصية حينما يستقر عند عام ٢٠٠٦ منذ أول شريحة وضعتها في الصفحة الأولى عن الراحلة أطوار بهجت لأتبّث زمنية الرواية وأبعد تاريخية بغداد المتداولة بيننا وأقف على مسافة النص وهو ينمو منذ مقتل أطوار الى الصعود الزمني للمدينة الذي تعرفون كل حيثياته، عبر بوابة بغداد التي امتثلت لواقع الحال في زمن الاحتلال، يبدو لي ان العنونة المشتركة للروايات التي ذكرها الدكتور لؤي انطلقت من بؤرة واحدة ورؤية مشتركة لبغداد في زمن معين ووقائع معينة في (جاذب صياغي) منبّه الى الثقل الكبير الذي تمثله بغداد حضاريا ونفسيا" ..

في سياق هذا النقاش شارك أيضاً الروائي سعد سعيد حيث كتب: "مثلما يكون العنوان إضاءة أولى للنص ومدخلاً لفهمه أحيانا، فإنه يكون في أحيان أخرى وسيلة الكاتب لمحاولة جذب القارئ إلى نصه عن طريق إثارة فضوله وهذا من حقه طبعا ما دام هو نفسه من سيدفع ثمن اختياره إن كان غير موفق، مثلما سيفيده التوفيق فيه.. ولكن تبقى العنونة مشروطة بالانتماء إلى صلب النص نفسه، ولعل تأثر الكتاب العراقيين بما حدث طوال السنوات السابقة في بلدهم هو الذي يفسر لنا نمط العنونة المشترك لعدد من الروايات العراقية".

فكرتي التي طرحتها خلال الحوار لم تذهب بعيداً عن الأفكار السابقة، حيث اعتبرت ان هذا التوجّه أو النسق العَنوَنيّ ، ربما يمثل فهماً جيداً لما تصنعه "بغداد" اليوم، او في السنوات الاخيرة، من بروباغاندا لكل ما تضاف اليه.. طبعاً ليس القصد من ذلك اتهام الكاتب، لأنه حاول ان يجعل عنوان روايته مألوفاً وقابلاً للتسويق، لكن على روايته ان تقدم تبريراً مقنعاً لكي تحمل هذا العنوان. يأتي هذا النمط في سياق ظاهرة عالمية لربط العناوين برموز سابقة، من قبيل استخدام "كافكا، دستويفسكي، دافنتشي، وحتى ماركيز" ككلمات محورية في العناوين، وهذه الظاهر العالمية تخضع أيضاً لنفس المساءلة النقدية.

البرج العاجي

فوزي كريم

أسماك فؤاد الطائرة

واحد من أهم عناصر الصفة الشعرية في النص هو التحام طرف التاريخ بالأسطورة، الواقع بالخيال، المرئي بغير المرئي، الظاهر بالباطن. هذه الالتحام حين يتحقق في النثر تصح عليه صفة الشعرية. لأن هذه الصفة لا تتحقق عبر الصياغة البلاغية للغة، كما يتوهم الكثيرون. ولذلك، وأنا اقرأ قصص العراقي فؤاد ميرزا "يوم طارت الأسماك" (الدار العربية للعلوم ناشرون)، أحسست بصفة الشعرية هذه تأخذني من يدي بيسر إلى حيث لا أعرف، ولا يعرف الكاتب أيضاً، لأن "النية المبيّتة" من خصائص النثر، ولكن حين تنعدم هذه "النية المبيّتة" يتماهى النثر مع الشعر.

قصص هذا الكاتب السبعيني المُقل تتمتع ببراءة وعفوية عميقتين. قسط منها كتب في سبعينيات المنفى العراقي، والقسط الثاني كُتب في المنفى الغربي بعد ذلك (إيطاليا وأمريكا). وربما كان منفى الكاتب في بلده ينفرد وحده بالتجريح والإذلال، مقارنة بالمنفى الغربي الذي يُحسن التعويض عن أذى الغربة. فالقصص جميعاً تنبعث منها رائحة الأذى القديم، الذي التاع منه ميرزا في صباه وشبابه، إلى أن هرب، كما هرب كثيرون، إلى المجهول. فهو من "الفيلية" المهمّشين سياسياً، الذين لم يُمنحوا الجنسية إلا بشق الأنفس. وهو من الشبان الذين لم ينتموا في زمن كان الانتماء فيه سنّة، ولم يكترثوا لكل خساراتهم الفردية، وكانت معنوية في الأعم الأغلب. وهل يخسر المعدم شروى نقير؟ ولذلك فالكتابة لديه كانت، وأستطيع أن أضيف الرسم أيضاً، السبيل السحري للحرية.

في نصه القصصي يفلت الكاتب من قيد الواقع إلى بحران المخيلة (لم ير أحدٌ صبياً بهذا الطول. نحيل دقيق مثل خيط.. وحينما يصعد إلى سطح الدار، حيث يتجمع الأطفال لصيد السمك المسحور الطائر، يكون أحسننا حظاً وأكثرنا قدرة على الإمساك بالأسماك الطائرة..) ص٢٠. وحين لا تفلت هذه المخيلة بدورها من مذاق الأذى، فإنه الأذى الذي تنطوي عليه التراجيديا، الأذى المُطهّر. بهذا المعنى تحقق الكتابة انعتاق الكاتب من الذاكرة المعتقلة بمخالب الأذى القديم.

أبطال الكاتب كيانات حية، تنطوي على أبعاد حياة إضافية في الطية التي تلي الواقع. وهي عادة ما تنتسب للطفولة، للصبا، أو للفقر، لأن هذه المواقع الإنسانية أرض خصبة للانطلاق من الواقع إلى ما وراءه. ولأن الكاتب واحد منهم فهو مشفقٌ دائماً، عطوف أبداً. الرقة التي يتعامل بها مع أبطاله أسيانة، ولكن ليست ذليلة. فالمخيلة كفيلة بتحقيق حرية متعالية: (نحن مثل جواد نتحول إلى محض ظلال.. ظلال لا يراها أحد، ولا تخاف من أحد؛ فنعود أحراراً في نهاية المطاف) ص٧١. وأبطاله غير مسمّرين داخل الحياة الفقيرة أيضاً. فعامل الفندق قد يكون وطواطاً أيضاً، والشاب المجنون قد يكون حصاناً، والنهر صديقاً متحدثاً، وكذا النهر والغيمة والسمكة. ولكن هذه القصص التي قد تغري الصغار أول وهلة، تذهب أبعد من فطنة الصغار. فكلّ حيّ، وكل شيء فيها يضمر إيحاءً رمزياً، لأن الكاتب لا يولي أهمية لرصد الخلفية الواقعية. وأقول إيحاءً لأنها تغري بالتأمل السيكولوجي، والميتافيزيقي في طبيعة الإنسان، أي إنسان.

أما بشأن العلاقة مع الشعر، فلنا أن نقرأ النص الآتي على أنه "قصيدة نثر" ناجحة، بالطريقة التي فهم فيها الأدب الغربي قصيدة النثر، لا بالطريقة العربية التي افتعلت مفهوماً لقصيدة النثر مُنتزعاً بالقوة من مفهوم "الشعر الحر"، الذي توهمته دون وزن. على أن اعتباري هذا النص قصيدة نثر اجتهاديّ، لأن المؤلف كتبه مع نصوص شبيهة باعتباره "قصة قصيرة جداً":

"اعتاد زيدان أن يبكي ثلاث مرات في اليوم، مما دعا الجيران إلى طرق السقف والجدران احتجاجاً على الصوت النشاز. قرر زيدان، الذي خلقه الله بست أصابع في كل يد، وبقلبين (في كل جهة من الصدر قلب) أن يبكي يومياً بصوت خفيض محاباة للجيران ومرة واحدة لنفسه بصوت مسموع."

دوريات ...

النقد الثقافي ودراسات أخرى في "آفاق أدبية"

بشار عليوي

عن دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد، صدر حديثاً عدد جديد مزدوج الثالث والرابع من فصلية (آفاق أدبية) الثقافية. وجاء هذا العدد حافلاً بالكثير من الدراسات والنصوص الأدبية والشهادات النقدية عبر محاور المجلة. بداية نطالع افتتاحية العدد التي حملت عنوان (نحو ترسيخ تقاليد بصورة المثقف) بقلم الناقد المسرحي د. رياض موسى سكران، وفي محور "قراءات" نقرأ دراسة بعنوان (النقد الثقافي في الدراسات النقدية العربية) للناقد د. سمير الخليل، و(شعرية السؤال في حرائق التكوين) لعلي الإمارة، و(محطات في روايتين قصيرتين) لحمدي الحديثي، و(البنية القصصية في يمامة الرسام) لإسماعيل سكران، و(مقاربات سينسردية في برج المطر) لأسعد الهلالي ، و(زيارة إلى مزار ناطق خلوصي) لحمد علي حسين ، و(تشكيل الأسطورة في رواية تعالى وجع مالك) لعبد العزيز لازم. وفي محور " إبداعات" نشرت المجلة قصائد متنوعة للشعراء (خالد علي مصطفى / حسين عبد اللطيف / طالب عبد العزيز / صالح هويدي / فلاح عدوان/ سلمان داوود / حامد البصري) وكذلك نصوص قصصية في المحور ذاته منها (كاليري ماريا) لجابر خليفة جابر، و(حادثة اختفاء) لناظم محمد العبيدي، كما نقرأ نصاً مسرحياً تعنون بـ(حمل في مرايا الذئاب)، وقد نشرت المجلة ملفاً تعريفياً بمنجز الفنان (أسعد الصغير)، وضمن محور "فضاءات" نقرأ عدداً من الدراسات منها (الخزف في العراق) لمحمد الهجول، و(نافذة على الفن) لنزار شهيد، فيما كتبت الناقدة د. بشرى موسى صالح نصاً مفتوحاً بعنوان (عتبات). وفي محور "رؤى" نطالع (رؤية تأويلية في حكايات عن الغرف المعلقة) لنوافل يونس الحمداني ، و(الروائي داخل النص) لعبد العزيز إبراهيم، ونقرأ دراستين ضمن محور "تجارب" الأولى بقلم الناقد المسرحي أ.د. محمد أبو خضير وحملت عنوان (المسرح جنتي.. تجربة جواد الأسدي) والثانية تعنونت بـ(دلالات المكان ومجهولية المعنى في تجربة ندى المطر) للكاتب صميم حسب الله، ونشرت المجلة حواراً مع المخرج المسرحي فاضل السوداني أجراه علي شبيب ورد، أما في محور "في الأفق" نُطالع (أفعال الأزمة) لسالم السوداني ، و(قراءة في قدح الطفولة) لعمار كشيش ، و(إلى أمي) ليحيى النجفي.

حنين بغدادي .. عندما تبدو المدينة خيالية

عمّان / المدى

"ليس حنينا شخصيا.. هو دفاع عن ذاكرة عراقية"، هكذا يصف الشاعر والناقد والصحافي علي عبد الأمير عجام كتابه الصادر حديثا بعمّان عن "دار الأديب" العراقية وحمل عنوان"حنين بغدادي".

انه يستعيد "بغداده" الشخصية فتبدو مدينة خيالية أو اقرب إلى ذلك، وتختلط فيها تجارب عاشها مع أمكنة تاريخية ومعاصرة، موسيقى ودور سينما، وحفلات راقصة وشوارع مكتظة بالمكتبات والنساء الجميلات، محال أزياء وحكايات مع شعراء ومثقفين عراقيين جمعته إليهم جولات من حياة كانت مفتوحة على كثير من الاحتمالات والامال ورغم الكثير من رعب الحروب والقمع السياسي والفكري والاجتماعي.

انه كتاب عن وقائع ويوميات عاشها صاحب ديوان "يدان تشيران لفكرة الالم" شخصيا في بغداد، منذ أن عرفها وهو طفل اول مرة في أوائل ستينيات القرن الماضي ثم تحوله الى السكن فيها العام ١٩٦٦ طالبا في "متوسطة المعتصم" ثم في "إعدادية المأمون" فكلية الطب البيطري بجامعة بغداد التي تخرج منها العام ١٩٧٩، وتجربته الطويلة في الحروب ١٩٧٩-١٩٩١ وصولا الى مغادرته البلاد العام ١٩٩٤ وعودته اليها بعد ايام من سقوط النظام الديكتاتوري وعمله في الصحافة المكتوبة والمسموعة ومغادرته الى اميركا للعمل مديرا لتحرير الاخبار في قناة "الحرة" بعد ايام من اغتيال شقيقه الكاتب والمفكر ومدير عام الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العام ٢٠٠٤.

وفي مقدمة كتابه الذي جاء في ١٩٠ صفحة من القطع الكبير، يقول صاحب ديوان "بلاد تتوارى" والمقيم حاليا في العاصمة الأردنية إن الكتاب "ليس حنينا شخصيا .. هو دفاع عن ذاكرة عراقية دفاع عن مساحات مضيئة، وان كانت محاطة بظلال الماضي، دفاع عن ذاكرة عراقية ما، يراد لها اليوم أن لا تبدو حاضرة وبغير لمسة إنسانية، كي يكون ممكنا وهيّنا أمر تمرير الرداءات الحياتية والفكرية، انطلاقا من فكرة تحاول أن تجعل تاريخ العراق المعاصر قرين تلك الرداءات ونتاجها، كما يحلو لأصحاب قلوب غليظة وعقول انتعشت في مراحل الكراهية أن يقولوا ذلك".

إنه دفاع عن ذاكرة المدينة وحكاياتها الغنية حياتيا ومعماريا يوم كانت مدينة مفتوحة للجديد والمؤثر والعميق والحضاري، حتى وان جاء في سياق حكايات شخصية حين بدأت معرفة عجام بها منذ أوائل ستينيات القرن الماضي قادما إليها من مدينة صغيرة تغفو على نهر الفرات، دفاع عن فكرتها التي خنقتها موجات الإرهاب والكراهية وعزلتها جدران الفصل الطائفية اليوم، دفاع عن موسيقاها وثقافة إنسانها الذي كان مجبولا على المعرفة والاكتشاف، قبل أن تنهكه أنظمة القمع والحروب والحصارات وحملات الكراهية، وتصيب في روحه مكامن الأمل والتفتح، لتوصله اليوم إلى قناعة بان مكانه هذا لا يمكن أن يكون إلا مدارا مفتوحا للظلم واليأس والتعب.

انه حنين إلى مكان أو أمكنة علي عبد الأمير عجام الشخصية، مثلما هو حنين الى مكان عراقي مشع بالأمل، بالفكرة الإنسانية الصافية الخلاّقة، وحين يستعيده إنما يستعيد ما كان فيه من احتمالات نمو وتطور كانت ستشع لولا بشاعات سياسية، ولولا أمراض اجتماعية.

انه حنين للجمال الذي مع تصاعد البشاعات السياسية والأمراض الاجتماعية اليوم، لن يكون إلا أثرا بعد عين، في بلاد كانت إلى نحو خمسين عاما خلت، تشع بالجمال الطبيعي والإنساني.

ويقول عجام عن كتابه "إنه ليس كتابا في الحسرة على الماضي أو التّرحم عليه، وليس مجرد الحنين إلى أيام الشباب الأولى ومحاولة استعادتها، لكنه كتاب الحنو والتلطف على المشهد الذي نما فيها أول حب، وكتاب إزجاء التحية والاحترام لأهل ولمعلمين وبناة ومربين ومريدي أفكار ومعماريين وكتاب وحالمين وأناس بسطاء عاديين، وجنود وغرباء وحراس أمل عرفتهم عن قرب وجعلوا الحياة أكثر نضارة وشبابا، وما انفكوا، عبر استمرار فكرتهم اليوم وغدا حتى وإن بمستويات نادرة، يجعلونها أوسع من توقيتات للقفز بين حقول الألغام التي اتسعت منذ نحو ثلاثين عاما حتى غطت البلاد بأكملها أو كادت".

ليس "البكاء على اطلال" بغداد المعاصرة

إنه ليس حنينا لهندسة بناء وتقاليد اجتماعية عراقية قاربت الرفعة في الملبس وتذوق الثقافة، انه "دفاع عن تلك اللمسات الإنسانية الراقية لابن بلادي، كي يستعيد العراقي اليوم بعض ملامحها ويقارنها بما أوصلت إليه الحروب والقمع والحصارات والأفكار المطلقة والمحرمات، "وطنية" كانت أم دولية".